الفصل الرابع

بحوث أثرية

١ — منارة الاسكندرية

٢ — سرابيوم « الاسكندرية »

٣ — مصر العتيقة والحصن الروماني

٤ — الاثر الدنيوي في الفن القبطي

٥ — أدوات زينة المرأة في العصر القبطي

obeikandl.com

obeikandl.com

منارة الاسكندرية

كان لأسطول بطليموس الأول — الملقب باليونانية (سوتر) وبالمصرية (نج) أي المخلص — السيادة البحرية التامة على البحر المتوسط ، فتقدمت المدنية التجارية بالإسكندرية تقدماً عظيماً خاصة طول مدة حكمه كوالٍ (٣٢٣ — ٣٠٥ ق . م) أو كملك (٣٠٥ — ٢٨٢ ق . م) وقد بذل جهوداً جبارة لضمان تقدم البلاد تجاريًا ورفع مستواها أدبيًا وعلميًا ، فقام بكثير من المشروعات العمرانية الخالدة كبنائه منارة الاسكندرية الشهيرة لهداية السفن على جزيرة (فاروس) عند مدخل الميناء ، وهي تعتبر أول منارة عرفها العالم القديم ، كما أنها أكبر منارة حتى يومنا هذا وهي تعدُّ إحدى عجائب العالم السبع .

وقد جرت عادة بعض المؤرخين إلى نسبة بنائها إلى الملك بطليموس الثاني الملقب (فيلادلفوس) إلاّ أن الحقيقة العلمية لا تقرُّهم على هذا الرأي ، فقد ثبت أخيراً أن مشيِّدها الحقيقي هو بطليموس الأول الذي أسند مهمة الإشراف على بنائها للمهندس (اليوناني Sostratus) الذي نشأ في بلدة (كنيدوس Cnidos) إحدى البلاد اليونانية ثم أتيحت له الفرصة فانضم إلى حاشية بطليموس الأول . وقد ظلت هذه المنارة قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادي حيث هدمها زلزال عديد عام ١٣٠٧ م . ومن حسن الحظ أننا نجد وصفاً مستفيضاً لهذه المنارة في مؤلفات كثيرين من المؤلفين المتقدمين أمثال (سترابون) و (يوسيفوس) و (ابن الصائغ) و (ياقوت) كما وصلتنا أيضاً صورة لهذه المنارة على بعض قطع من العملة الرومانية التي عثر عليها أخيراً . ومن الأوصاف التي وردت في تلك الكتب وعلى بعض قطع النقود نستطيع أن نقول إن هذه المنارة كانت مشيَّدة في فناء مربع يحيط به سور عظيم من جهاته الأربع وكان خارج هذا السور رصيف يسير عليه الناس . أما المنارة نفسها فكان ارتفاعها مائة متر ، وتتكوّن من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، فكانت

السفلى مربعة الأضلاع والوسطى مثمنة ، أما الطبقة العليا فكانت مستديرة، ويعلوها تمثال رجل من النحاس يحمل مصباحاً .

وقد أطلق على هـذه المنارة اسم الجزيرة التي شيدت عليها أعني (فاروس) فأصبح هذا اللفظ يدل في اليونانيـة وكثير من اللغات الهندية الأوربية على معنى (منار) والذي أصبح في العربية (فنار) وفي الفرنسية (فار Phare) وفي الانجليزية (فاروس Pharos) .

ويعتبر علم الآثار هذه المنارة أقدم بناء من هذا النوع عرفه العالم ، وأن هذا البناء أصبح فيما بعد مثالاً يحتذى عند بناء جميع منارات العالم قديماً وحديثاً، بل تحفة فنية من تحف فن العمارة والزخرفة والهندسة التي ترجع الى ذلك العصر السحيق .

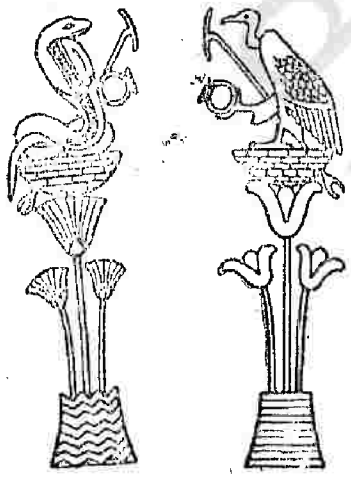

سرابيوم
معبد الاسكندرية

منذ أعوام قلائل اكتشف رجال متحف بلدية الاسكندرية بجوار عمود السواري آثاراً ترجع الى عهد الملك بطليموس الثالث . وقد نوهت بها بعض الصحف يومئذٍ وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشىء لسرابيوم الاسكندرية .

غير انه قد اتضح من بحث المراجع الأثرية والادلة التاريخية أن منشىء سرابيوم الاسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث .

ولقد كان الاسكندر الأكبر وحكام البطالمة يميلون إلى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية . ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها ، واتخذوا لأنفسهم الألقاب المصرية التي ترجع الى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبة الى الإله حورس (إله السماء) ، الذي كانوا يعتقدون انه يحمي حامل لقبه، بل يعتبر من سلالته . واللقب صارع نسبة الى الإله رع (إله الشمس) ظناً منهم أن المسمى به يعتبر ابناً للإله رع .

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بمثل هذه الطرق ، بل فكر في طريقة أخرى لايجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين .

فغيّر اسم المعبود المصري (العجل آبيس) بتسمية مصرية يونانية (أوسرحابي ، أي العجل آبيس المتوفي) بسرابيس . وعبده المصريون في شكل الآلهة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الإله أنوبيس . واليونانيون في شكل الإله اليوناني هادس (إله الآخرة) أو اسكالبيوس (إله الشفاء) أو زيوس .

وبذلك أصبح كلٌ من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزاً لديانة جديدة .

فكلّف بطليموس الأول المهندس اليوناني Parmenissas پارمنيسوس إنشاء معبد

للإلـه سرابيس بالاسكندرية فأقامه مكان عمود السواري الحالي ، وأطلق عليه اسم السرابيوم وكان هذا المعبد أهم مركز لعبادة هذا الإلـه في عصر البطالمة .

وقد أضاف أيضاً بطليموس الأول هيكلاً جديداً بسرابيوم منف [1] للمعبود العجل آبيس ، وهو أحد أشكال الإله سرابيس على الطريقة المصرية كما تقدم . ويرجع تاريخ سرابيوم منف الى الدولة الحديثة أو الى ما قبل هـذه الدولة في بعض الآراء . ولا يمكن القول بأن بطليموس الأول هو الذي أنشأ سرابيوم منف بناءً على التعديل الذي أجراه فيه [2] .

كما أن وجود ألواح ذهبية باسم بطليموس الثالث بسرابيوم الاسكندرية منقوش عليها أنه أهدى إلى سرابيس المعبـد والحرم المقدس — لا يدل دلالة قاطعـة على انشاء هـذا السرابيوم ، بل يستنتج من النقوش فقط إنه اهتم بتوسيع هذا المعبد أو بتجديد بنائه كما حدث في سرابيوم منف في عهد بطليموس الأول لا سيما أن السرابيوم يشمل عدة مبانٍ .

وقد وجد علماء الآثار ألواحاً ذهبية بمدينة كانوب (بجوار أبي قير) باسم بطليموس الثالث منقوشاً عليها أنه أهدى هو وزوجته برنيكا المعبد للإلـه أزوريس . فالمقصود هنا أن الاهداء ينصب على ما أضيف بمعرفتهما بهذا المعبد . وتوجد إحدى هذه الألواح بالمتحف البريطاني بلندن.

مما تقدَّم نستطيع القول بأن بطليموس الأول لا الثالث أنشأ سرابيوم الاسكندرية [3]

---

(١) سرابيوم منف عبـارة عن هياكل متصلة بمحاريب لدفن ما يموت من عجول آبيس وكانت توضع جثث العجول في توابيت وتدفن بهذه المحاريب . وكانت وفاة العجل آبيس تعتبر حداداً تهتز له البلاد كلها وعند ما يكون العجل آبيس على قيد الحياة كان يعيش في مكان بجوار هيكل بتاح على مسافة أربعة أميال تقريباً داخل بقعة منزرعة من الوادي تدعى « آبيوم »

وعلاقة الاله بتاح بالعجل آبيس هو أن المصريين في عصر الدولة الحديثة كانوا يعتقدون أن روح الاله بتاح قد تقمصت العجل آبيس

(٢) وفوق أهمية ما شيده بطليموس الاول في سرابيوم منف من الوجهة الدينية تقوم له أهمية فنية إذ انه أول بناء في مصر معروف حتى الآن ظهرت فيه الاعمدة اليونانية المسماة « كورنثي »

(٣) وقد وصلت درجة عبادة الاله سرابيس الى حد جعل جميع المصريين يعبدونه ، وكذلك يونانيو مصر إذ أصبح إله الدولة . وفي المسائل القضائية يذكر اسمه في القسم

كما أن عبادته انتشرت من الاسكندرية الى البلاد الافريقية ثم فيما بعد الى الدولة الرومانية

مصر العتيقة

منذ عصر الملك مينا الى عصر الفاروق

والحصن الروماني

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية من النيل جنوبي القاهرة ابتداءً من فم الخليج « رأس الدلتا » ، وكان يطلق عليها في العصور الفرعونية اسم « خرى عحـا » أي ميدان الحرب ، ذلك لأنه نشبت بالقرب منها حروب بين أهل الشمال « الوجه البحري » وبين أهل الجنوب « الوجه القبلي »[1] وربما أطلق عليها اسم « كمت » أي « الأرض السوداء » لخصوبة تربتها . وكان يطلق هذا الاسم « كمت » على القطر عامة ، كما هو الحال حين يطلق الآن اسم مصر ويراد به « القاهرة » ، أو حين يطلق ويراد به على التعميم القطر المصري . إلاّ أن تسمية « خرى عحـا » أصبحت أكثر شيوعاً وانتشاراً من التسمية الثانية حتى عصر البطالمة . فعلى سبيل المثال نذكر أن نصوص مصر الوحدة الأولى « الدولة القديمة » المكتوبة على حجر بالرمو ذكرت عند الكلام على الملك « نفرايركارع » نحو سنة ٢٧٣٠ قبل الميلاد كلمة « خري عحـا » ، كما ذكرت أيضاً في نصوص الأهرام في فقرة (١٣٥٠) ، وكذلك في عصر الوحدة الثانية « الدولة الوسطى » وعصر الوحدة الثالثة « الدولة الحديثة » في النصوص المكتوبة على لوحة أبي الهول ، وفي مقبرة الملك « سيتي الأول » ، وفي العصور المتأخرة

---

(١) ولتخليد ذكرى هذه الموقعة التي كانت خيراً وبركة على سكان وادي النيل وشعب مصر بقيت هذه التسمية « ميدان الحرب » حية حتى عصر البطالمة والفضل في ذلك يرجع الى العقيدة القائلة بأن تلك المعركة التي دارت رحاها في هذا المكان انما هي معركة بين اله مصر العليا (حورس) واله مصر السفلى (ست) وانتصار الاله (حورس) على الاله (ست)

بلوحة « بمنفى » عند التنويه بأنه زار هذه البلدة في طريقه من منف إلى عين شمس .

وقبل أن تصبح مصر ولاية رومانية عبّر عن « مصر العتيقة » باسم « بابليون مصر » كما هو وارد في النصوص اليونانيـة والقبطية ، وهي تسمية أكادية « أشورية » بمعنى « باب الله » أي دار أمان ، واتخذت فيما بعد عاصمة للرومان . وهناك من يرى ان معنى هذه التسمية « باب عين شمس » .

أما بعد الفتح العربي فقد أطلق عليها اسم « الفسطاط » . وكان قصد الرومان والعرب ومن قبلهم من هذه التسمية واحداً ، كما أن بعض الكتّـاب العرب أطلقوا عليها اسم « قصر الشمع » ، وهي تسميـة محرفة عن كلمة « كت » إحدى التسميتين الفرعونيتين مضافاً إليها كلمة « قصر » ومن الجائز أن تكون لفظة « قصر » أطلقت على بناء داخل الحصن ، إذ هي للقصر أقرب منها للحصن ، وسميت بعد ذلك حتى وقتنا هذا باسم « مصر العتيقة » . ويستنتج من اختلاف هـذه الأسماء لتلك المنطقة أن أدواراً تاريخية متشابهة قد مرّت بها . وبالرغم من كثرة العصور التي مرّت بها واستدعت إعادة تشييدها ، نظراً لتتابع الخروب في فترات مختلفة ، فإن موقعهـا الجغرافي الحالي يكاد يكون في موقعها الأصلي منذ العصر الأول مع امتداد الى جهة الشمال .

* * *

كانت « مصر العتيقـة » في أغلب العصور المتقدمة عاصمة البلاد ولا تزال ، إذ أن القاهرة عاصمة الملك الحالية تقع شماليها ، كما أن سراي القبة الحالية التي اختيرت في العهد الحاضر مقرّاً للملك تقع أيضاً في شمال القاهرة وكذلك مصر العتيقة تقع شمالي مدينة « إنبو حدج » (الجدار الأبيض أو منف) العاصمة الفرعونيـة الأولى لمصر حينما وُحّدت في عهد الملك مينا « نعرمر » حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب في اختيار « مصر العتيقة » عاصمة للبلاد وقوعها عند رأس الدلتا ، ولأنها تقع أيضاً عند أول الصحراء الشرقية ، ولها من هـذه الناحية سيطرة حربية ، كما أنها تقع على النيل ، فهي ميناء نهري عظيم استخدم ولا يزال يستخدم في نقل الحبوب وغيرها . وكان السفر منها الى جهات القطر المصري شمالاً وجنوباً سهلاً يساعد الحـكومات على الإشراف الإداري مساعدة جديّـة فعالة ، فهي لذلك مركز هامّ من الوجهة البحرية سواء التجارية منها أو الحربية .

وقد كانت هذه المنطقة في جميع العصور موضع اهتمام الحكام والملوك . وأهم ما بقى فيها من مخلفات تلك العصور هو :

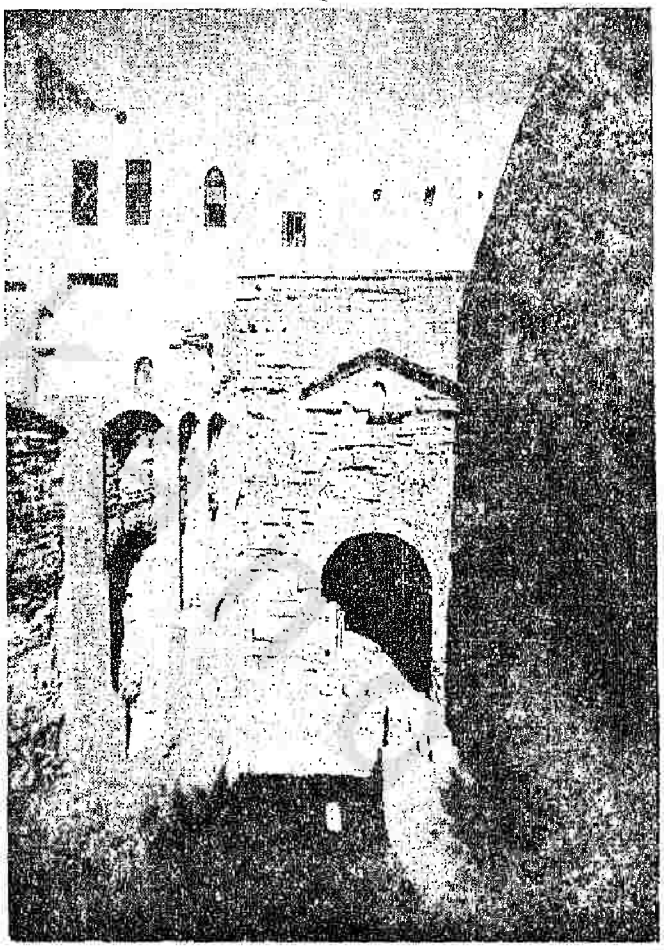

شكل ١ : الباب الأيلي بين البرجين الجنوبيين
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي)

أولاً : حصن بابليون — شيده الفرس في عهد « قمبيز » وجدّده الرومان وجعلوه رمزاً لحضارتهم ، ثم أضافوا إليه تعديلات في عهد الإمبراطور « أغسطس » ثم « تراجان » من بعده ثم من خلفهما من الأباطرة حيث رابطت فيه حامية كان الغرض منها تحقيق الهدف الحربي والسيادة التجارية ، ولا سيما أنه قد مرَّ أكثر من أربعمائة عام من تأسيسه وهو باقٍ دون صيانة أو عناية بأمره . وذلك نتيجة انتقال العاصمة المصرية الى الوجه البحري ، ثم من هذه المنطقة الى الاسكندرية في عهد الإسكندر الأكبر ومَن خلفه من البطالمة ،

عدا ما استقبح ذلك من تهدم بعض أجزاء منه ، مما جعله في حاجة الى الترميم والإصلاح . وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد خالفوا هـذا الرأي . وقالوا بأن تراجان هو الذي أنشأ هذا الحصن في القرن الثاني الميـلادي فإنا لا نميل الى الأخذ بهذا القول ، ذلك بأن الحقيقة الثابتة تدل على أن ديودور الصقلي عندما كتب تاريخه عن مصر حوالي سنة ٥٠ قبل الميلاد

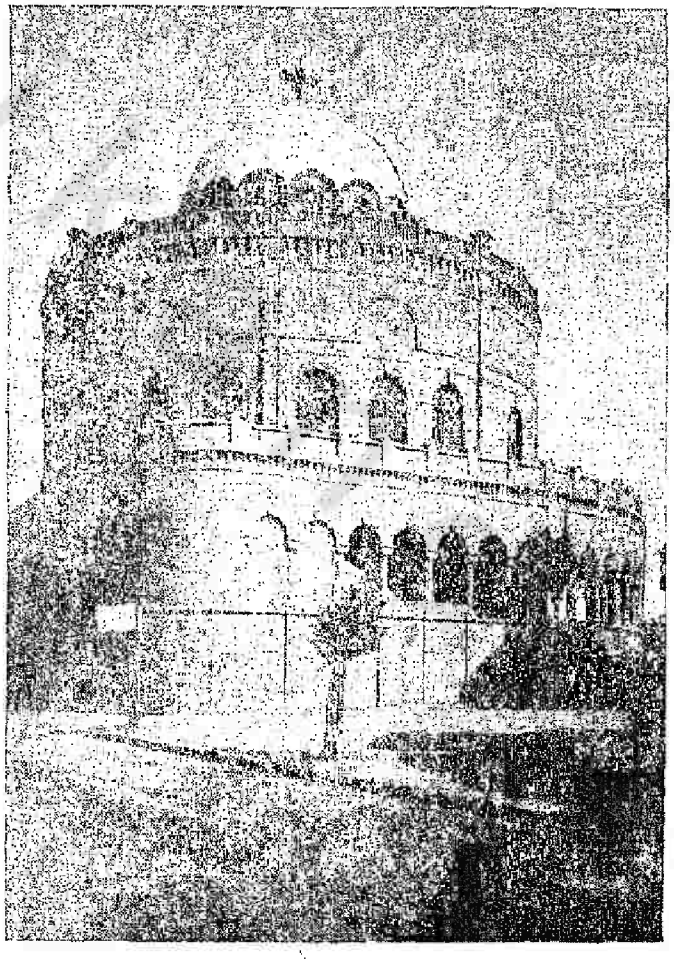

شكل ٢ : البرج القائمة عليه كنيسة مارجرجس
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي تبين حالة الحصن قبل ترميمه)

ذكر «بابليون» ، كما أن إسترابون الاغريقي عندما زار مصر سنة ٢٥ ق . م. أي قبل عهد تراجان بما يقرب من مائتين وثلاثين عاماً قال إنه « رأى في عين شمس المنازل العظيمـة التي كان يسكنها الكهنة الذين درسوا الفلسفة والفلك ، وإن من يسير الى عين شمس في النيل متجهاً الى الجنوب يصل إلى بابليون وهو موقع حصين » .

ولا نزال نرى بعض أبراج هذا الحصن حول جدران مباني المتحف القبطي ؛ فاذا ما تأملنا جدرانه الظاهرة من الخارج تبين لنا أنها على نمط البناء الروماني العادي وأنها ذات خمسة مداميك من الحجر الجيري الأبيض يتلوها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر . وأغلب أحجار هذا النوع مأخوذ من مباني فرعونية لم تزل على بعضها نقوش هيروغليفية .

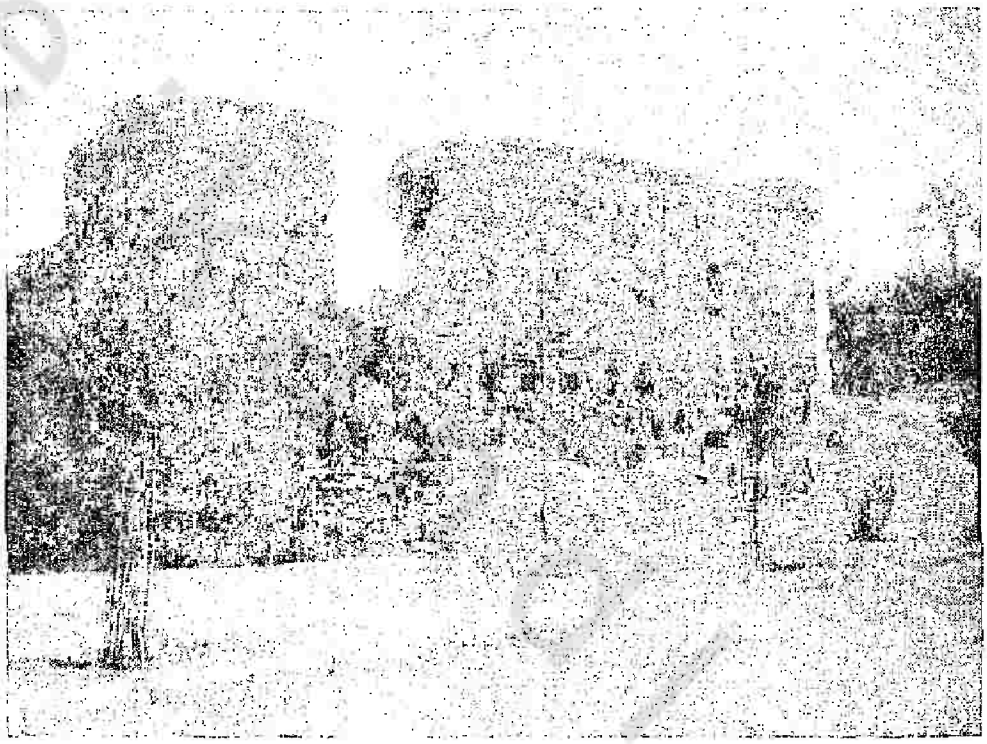

شكل ٣ : البرج الغربي القائم في حديقة المتحف القبطي
(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الاول إلى المتحف القبطي تبين حالة البرج قبل ترميمه)

ونرى أحد الجدران من الجنوب « الجهة القبلية » عبارة عن برجين كبيرين دستديرين يبلغ ارتفاع كل منهما نحو عشرين متراً ، وبينهما أحد أبواب الحصن (شكل ١) ، وعلى أحد هذين البرجين « كنيسة المعلقة الأثرية » . واكتشف في أطلال هذين البرجين نسرٌ رومانيٌّ ناشرٌ جناحيه .

وفي الجهة الغربية برجان آخران كبيران بينهما مدخل المتحف القبطي ، وأحد هذين البرجين مشغول بكنيسة مار جرجس الروماني (شكل ٢) . والآخر في حديقة المتحف (شكل ٣) . والأمل كبير في أن تظهر الحفائر المقبلة كشف بوّابة تربط بين البرجين على

رصيف الميناء النهري القديم إذ أن النيل قديماً كان يمرّ بجوار جدران هذا الجزء من الحصن . وكانت منطقة الحصن على ضفة النيل حتى تأسيس الفسطاط .

كل هذا يدل دلالة واضحة على ما كان عليه هذا الحصن من مناعة تفوق مناعة الحصون التي شادها العلم الحديث ، وعلى دقة بناء هذا الحصن ، فقد بقي حافظاً شكله القديم مع أنه مرّ ما يربي على ألفي سنة على بنائه الذي تبلغ مساحته حوالي ٦٠ فداناً .

ثانياً : الكنائس الأثرية — وهذه الكنائس التي داخل الحصن الروماني هي : المعلقة ، وأبومرجة ، وقصرية الريحان ، ومار جرجس المصري ، ومار جرجس الروماني ، وأنبا شنوده ، ومار مينا ، والست بربارة .

ثالثاً : جامع عمرو — وهو أقدم جامع بني بالديار المصرية أسسه عمرو بن العاص عقب افتتاح العرب لمصر ، نحو سنة ٦٤٠ ميلادية أي بعد استيلائهم على الحصن الروماني ، وقد محت الإصلاحات الكثيرة التي أجريت بالجامع قبل عهد صلاح الدين ، كثيراً من المباني الأولى التي كان يتألف منها الجامع في عهد عمرو بن العاص . وقد تجلى في هذا الجامع فنّ العمارة والتصميم في العصور التالية لعهده .

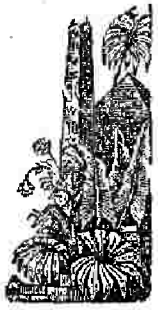

الأثر الدنيوي

في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فنٌّ دينيٌّ مسيحيٌّ محضٌ يعبر عن فن الأديرة والكنائس ، مؤثراته دينية ، كما أن أغراضه دينية أيضاً ، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية ، وإنه لم يرم الى أغراض دنيوية (مدنية) .

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفنُّ البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة ٣٩٥ ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية ديناً رسميًّا لمصر ، ويستمر حتى سنة ٦٤٠ ميلادية ، وهو وقت دخول العرب مصر .

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء ، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كانوا يطلق عليهم قبل غزو الإسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني « ايجبتيوس »[1] الذي حُرِّف بعد ذلك الى لفظ قبطي .

وهذا يقطع بأن كلمة قبطي لا علاقة لها إطلاقاً بالنزعة الدينية ، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها .

نخرج من هذا بنتيجة هامة وهي أن الفن القبطي كان فنًّا مصريًّا قبل أن يكون فنًّا دينيًّا كما هو الرأي الشائع حتى الآن .

ومجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي ، وفي باقي المتاحف المصرية ، وكذلك في مختلف متاحف أوربا وأمريكا ، وفي الأسباب التي استند عليها العلماء في رأيهم السابق ، وفي ما قام به العلماء من حفريات — يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه ، فقد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه

(١) وبقي لفظ Egypt في اللغات الاجنبية كالانجليزية والفرنسية والايطالية اسماً لمصر الى يومنا الحاضر

المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي ، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها .

فمثلاً وجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثار بغيضة الى الدين المسيحي والمتدينين به ، فالمتحف القبطي زاخر بصور المرأة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلى السيدات من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما الى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقان الذهبية التي على شكل عنقود العنب ، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالعجل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية .

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثاراً منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو راقصين أو راقصات ، كما أن بعضها يشبه ما وجد في مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية أو بعض الأواني المعدنية ، كالاناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حسى) أي ممدوح ، أو الملعقة الصدفية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيراً في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها الى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد .

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل مصر ، من طيور ، وأسماك أو نبات البردي ، أو التمساح أو المراكب ، والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها ، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد .

كما أن هناك آثاراً عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم . وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية ، وهذا يدل على ان الفن القبطي كان فناً مشتركاً بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين .

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوماً حيوانية كصيد الأسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان . وان أصل الكثير من

هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة .

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة — ومصر بلاد زراعية — أو أدوات طبية ، كالمرود والسكين والمقبض ، أو أدوات الكيل ، والوزن ، أو أدوات الكتابة ، أو أدوات الطهي ، أو أدوات النسيج ، والكثير منها يرجع في أصله الى مصر الفرعونية .

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمتُّ الى الدين المسيحي بأي صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به ، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة ، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان للحياة في شتى نواحيها

ويرجع كثير من الرسوم الجصية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها الى نقوش فرعونية أو زينة فرعونية ، بل إنها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية . وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع الى تطوُّر العادات المصرية الفرعونية .

وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من القماش تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصلة ما ، رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة الامبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع الميلادي إحدى أجزائها .

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين أطلاقاً ، وإنما هي ترمز الى صور من الحياة المادية . فمثلاً : ما علاقة عصفور يأكل عنباً (صورة رقم ١) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين ؟

بل من الطريف أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين ، إذ ضمن رسومه حكماً وأمثالاً كانت متداولة في مصر الفرعونية ، ولا زال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر . مثال ذلك : لعبة القط والفار المرسومة على جدران أحد مباني باويط .

وإذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهباً بعيداً لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي في نظرهم) وجد معاصراً للعصر المسيحي بمعنى انه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فنًّا قبطيًّا .

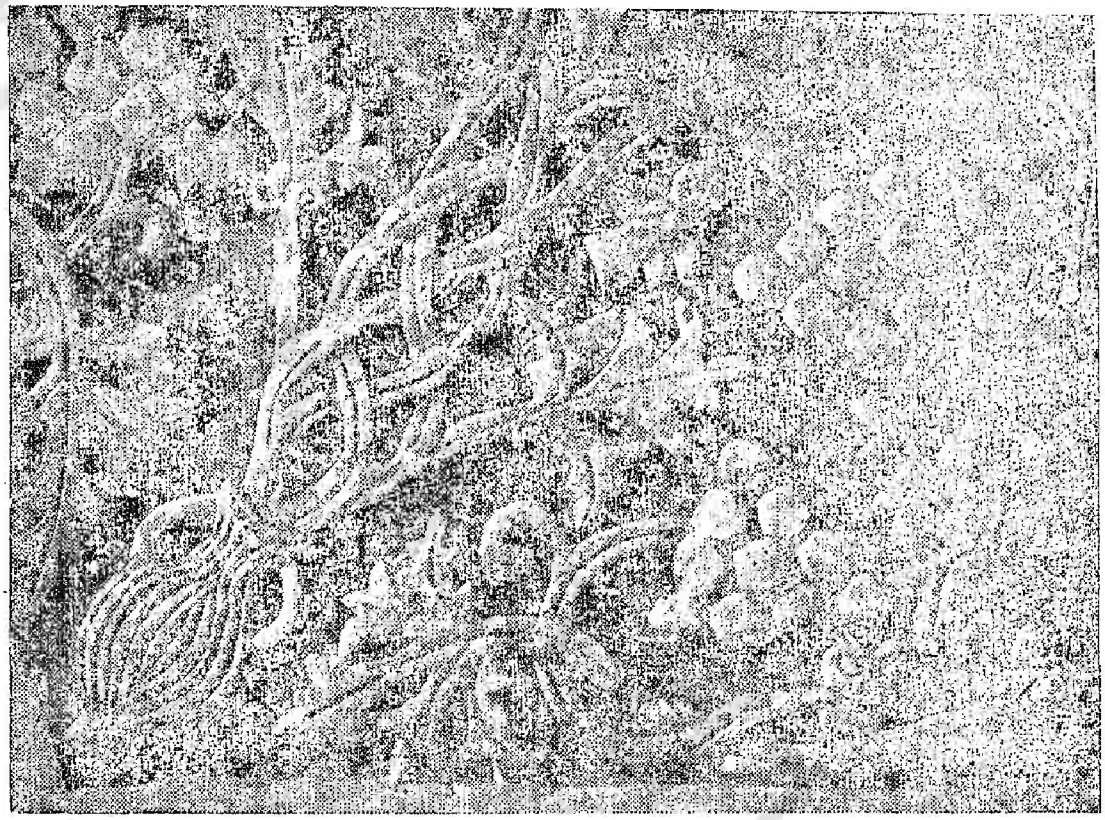

صورة رقم ١ (تصوير المتحف القبطي)

ولكن اذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني ، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه ، وقد قلد اليونان والرومان في عمائرهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفتها ، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع تحديده نوعاً بدخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما .

فقد ثبت انه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنيَّة رائعة رن صداها في كافة الأرجاء ، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة .

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنًّا يونانيًّا رومانيًّا فحسب ، أو نوافق على رأي الفريق الآخر من أن الفن الهيلينستي وهو المزيج من اليوناني المتأخر ، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي ساد في هذا العصر في مصر .

وإننا لا ننكر ان الفن اليوناني الروماني أثر بدوره في الفن القبطي المصري ولكن هذه الظاهرة ظاهرة تأثير الفنون المعاصرة للفن المصري على الفن المصري نجدها في الفن الفرعوني إذ تأثر الفن الفرعوني في عصر الوحدة الثالثة بالفنون الأجنبية المعاصرة له .

٢ — صيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

وهذا لم يخرج الفن المصري عن صفته الفرعونية كذلك الفن القبطي لم يتأثر بالفنون المعاصرة له تأثيراً يجعلنا أن نطلق عليه « بيزنطي » .

بل كان يوجد معاصراً للفن القبطي المصري فن يوناني روماني في أرض مصر لطبقة

الحاكمة وجاليتها وهي يونانية ثم رومانية بطبيعة الحال ولا يدعو كل ذلك الى ضم هذا الفن (أقصد فنهم اليوناني الروماني) الى الفن القبطي لأن الفن اليوناني الروماني فن قائم بذاته وعلى هذا الأساس لا أضم كثير من الآثار المعروضة في المتحف القبطي الى الفن القبطي على سبيل المثال الآثار التي عليها قصة ليدا أو هيكل القنطور أما الفن القبطي العربي فقد تأثر ببعض التوجيهات التي أتى بها العرب منذ سنة ٦٤١ ميلادية .

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد بأن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنًّا دينيًّا مسيحيًّا محضًا ، وانما هو فن مصري له مؤثراته وأغراضه الدنيوية ، كما أن له أغراضًا ومؤثرات دينية .

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية الى لهجات منها : اللهجة البحيرية ، والصعيدية ، والأخميمية ، والفيومية ، التي تدل دلالة واضحة على التطور الاقليمي للغة المصرية القديمة .

ولم تؤثر اللغة اليونانية على القبطية الا من حيث بعض حروف الهجاء وبعض المفردات الدخيلة . وظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها أيضًا في عصر وحدة مصر الثالثة وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية .

أدوات زينة المرأة

في العصر القبطي

ذكرنا أنّ الفن القبطي قام قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع إلى حدّ ما تحديده بعصر دخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري . والفن القبطي الفرعوني ، أمّا الفن القبطي العربي فيبدأ بعد دخول العرب مصر .

ومن الخطأ أن يتصور المرء أن المصريين الأقباط لم يحفلوا بالعناية بجمال المرأة .

والجمال في المرأة ينقسم الى قسمين أساسيين :

أولاً — الجمال الحسي وهو جمال الوجه والبدن أو بعبارة أخرى الجمال الجسدي .

ثانياً — الجمال المعنوي وهو جمال الروح والعقل أو الجمال الروحي وكل منهما يبعث في نفس الرجل الإعجاب والاستحسان ، فالأول طريقه الحواس ، والثاني طريقه الشعور الباطن.

وموضوع هذا البحث يتعلق بالقسم الأول وهو الجمال الحسي وكان يرتكز على أربع دعامات أساسية لتكوين قوّة موحدة كاملة تستطيع أن تمتلك جميع الحواس

فالدعامة الأولى : هي تزيين الوجه ، وتجميل الشعر .

والدعامة الثانية : هي تزيين الصدر .

والدعامة الثالثة : هي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم .

والدعامة الرابعة : هي استعمال الملابس المزركشة الألوان .

فالمرأة القبطية بالجمال غرام فكيف كانت تتجمل . وما هي الأشياء التي تزين بها وجهها وبدنها أو ما هي أدوات زينة المرأة في العصر القبطي ؟

فكرت المرأة القبطية في تزيين وجهها فاستعملت « الأثمد » الكحل لعينيها وغرام

القبطيات بالكحل يدل عليه ذلك العدد الوفير من المكاحل ، فعلى سبيل المثال مكحلة رقم ٥٨٤٣ بالمتحف القبطي وهي على شكل عمود ومصنوعة من البرنز أو مكحلة رقم ٥٨٥٤ بالمتحف القبطي وهي على شكل إناء صغير ومصنوعة من الزجاج ويرجع تاريخهما الى القرن الرابع الميلادي .

ومع بعد هذا العصر لا زال الى يومنا هذا تستعمل بعض القرويات المصريات هذه المكاحل بعينها .

كذلك استعملت المرأة القبطية الأمشاط ودبابيس الشعر لتجميل الشعر فعلى سبيل المثال مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطي المصنوع من العاج ومنقوش عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكأة على سرير تحته كلب وبجانب السرير خادمة تحمل طفلاً ، ولا يمكن لعقل رجيح الحكم بأن هذا المشط وما عليه من نقش يشير إلى شيء من الدين مطلقاً مع أن تاريخه يرجع الى القرن الرابع الميلادي أي بعد المسيحية بما يقرب من أربع قرون . ثم لدينا مشط آخر رقم ٥٦٥٥ بالمتحف القبطي يرجع تاريخه الى القرن الرابع الميلادي ومصنوع من العاج أيضاً ومنقوش عليه رسم يمثل وقوف السيد المسيح على قبر اليعازر . فهنا الصورة دينية ولكنها وضعت على مشط والمشط ليس من الدين بشيء ، وإنما من أدوات الزينة الدنيوية . ورغماً من أن هذا المشط وسابقه من أواخر القرن الرابع للميلاد إلا أنهما يشبهان كل الشبه أمشاط عصور مصر الفرعونية ، بل ومشط اليوم المعروف عند العامة « الفلاية » .

وكذلك عثر المنقبون على أقراط تعلق في الأذن بعضها على شكل مستدير أو بيضاوي إلى غير ذلك من مختلف الأشكال ، ويتدلى من بعضها سلاسل على شكل حبات من الخرز ، وقد وجد منها الأستاذ احمد فخري في حفائر مصلحة الآثار المصرية جهة الواحات البحرية ، أقراط على شكل عنقود عنب ومؤرخة في القرن الرابع الميلادي ومصنوعة من الذهب .

فلم يتخذ بعض العلماء من عنقود العنب في الفن القبطي دليلاً أو برهاناً على المسيحية في الفن ، حقاً قال المسيح « أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام » وشبه المؤمنين بالأغصان ومارس العشاء السري (الأفخارستيا) بعصير العنب ، وضرب مثل الكرم والكرامين ولكن معروف أن الله ضرب مثلاً كهذا لشعب اسرائيل قديماً (سفر أشعياء : الاصحاح ٥) فبالله

عليكم قولوا أية علاقة توجد بين قرط تزدان به الأذن وبين المسيحية ، وقد وجد مثل هذا الرسم في أقراط من عهد الفراعنة أي قبل المسيحية بآلاف من السنين ، ألبس العنب كثيراً في بلادنا في العصور الفرعونية والقبطية والعربية والحاضرة ، ومن أبدع الزخارف هكذا ؟!

ونحن إذا مررنا بحجرات المتحف القبطي رقم ١٣ ، ١٥ لوجدنا مجموعات مختلفة من أدوات زينة الصدر كالعقود على أشكال متنوعة ومصنوعة من مختلف المعادن والأحجار ومنها ما يشابه عقود مصر الفرعونية من بعض نواحي الشكل .

هذا من جهة الدعامة الأولى والثانية. أما الدعامة الثالثة وهي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم أي الأساور والخواتم والخلاخيل الى غير ذلك فقد وجدت مجموعات متعددة بعضها من ذهب أو فضة، وغيرها من عاج أو عظم الى غير ذلك من مختلف الأنواع والأشكال وهي لا تخالف ما يماثلها من آثار العصر الفرعوني وما يماثلها من أدوات زينة العصر الحاضر في شيء يذكر .

والدعامة الأخيرة فكفى ما يلاحظ من زركشة في الملابس المعروضة بالمتحف القبطي وبعض نقوش مرسومة على الصناديق المصنوعة من العاج الملون في حجرة رقم ١٣ بالمتحف القبطي لسيدات أنيقات تمسك إحداهن مرآة في يدها .

أضف الى تلك الدعامات أوانٍ كثيرة المواد المعثورة موجودة بالمتحف القبطي ويرجع تاريخها الى القرنين الخامس والسادس . مما تقدم يستنتج أن الزينة الجسدية وأدواتها بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة هي لمحض الجسد ولا علاقة لها بالدين وفي هذا دليل قاطع على أن الفن القبطي ليس خلواً من الأثر الدنيوي .